**التجديد الدينى والمسألة الاخلاقية**

**عند محمد إقبال**

**بقلم / مولاى احمد صابر**

**يتم التعاطى مع موضوع مسألة الاخلاق فيما هو أعلم بالتركيز على الجانب المرتبط بسلوكيات الافراد بالحديث عن أخلاق الصدق والصبر والامانة والاحترام وكل ماتصل بالآلداب العامة فضلا عما له علاقة بطباع الناس المتعلقة بطريقتهم فى التواصل والكلام والاكل والشرب وغير ذلك مما ينبغى للفرد السوى ان يتصف به وما ينبغى ان نعلمه للصغار من آداب وأخلاقيات وغيرها وهذه أمور كلها لها أهميبتها الخاصة**

**ولكن ربط المسألة الاخلاقية فى مجملها بالتفكير وبالفلسفة وبالنظرة الى العالم امر شبه مغيب وهذا لايعنى انه ليست هناك كتابات حول معالجة المسألة الاخلاقية فى علاقة الاخلاق بنظم المعرفة الانسانية الا انها قليلة اذ سبق لاحمد امين ان أصدر كتابا بعنوان " الاخلاق " 1920 واصدر زكى مبارك سنة 1924 كتابا بعنوان " الاخلاق عند الغزالى " وكان قد آثار ضجة بسبب منحاه النقدى واصدر محمد يوسف موسى 1940 كتابا عنوانه تاريخ الاخلاق وقدم محمد عبد الله دراز أطروحة متميزة فى جامعة السوربون عنوانها دستور الاخلاق فى القرآن 1947 واصدر ماجد فخرى 1978 كتابا عنوانه الفكر الاخلاقى العربى وكتب طه عبد الرحمن سؤال الاخلاق مساهمة فى النقد الاخلاقى للعدالة الغربيىة 2000 م ومتب محمد عابد الجابرى العقل الاخلاقى العربى دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم فى الثقافة العربية 2001 م إلخ .. ولكن فى تقديرنا أن موضوع المسألة الاخلاقية على اهميته فى حاجة لاهتمام ومعالجة اكبر وفى حاجة لتوسيع مجال الدراسة والبحث فيه وفقا لمقتضيات الزمن المعرفى الذى يظللنا اليوم**

**اننا فى الزمن الحاضر فى حاجة اكثر من اى وقت مضى الى معالجة المسألة الاخلاقية بإعادة تقييم بناء العلاقة التى تربط الانسان بالكون وبأخيه الانسان وبالغيب بالنظر الى مشكلة التلوث البيئى ومشكلة الحروب والصراعات فى العالم فضلا عن التمييز بين بنى البشر وجلب المصلحة الخاصة على حساب المصلحة العامة لصالح مركزية دول الشمال على حساب دول الجنوب وغير ذلك من المشكلات المتعلقة بالعنف والاستغلال فكل هذه المطبان وغيرها تضمنا امام سؤال جوهرى مفاده يدور حول العلاقة التى ينبغى ان تسود بين العلم والأخلاق اليس من غايات الكسب الانسانى ان ينجو منحى الاعمار والإصلاح بدل الفساد والدمار !؟ ولأنجد اقوى جوابا لهذه الحال من قول الله تعالى : ( ظهر الفساد فى البر وابحر بما كسبت أيدى الناس ليذقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ) الروم 41 لقد ذاقت الانسانية فى الزمن المعاصر ويلات بعض مما كسبت ولعلها اليوم وفيما هو قادم من الايام ترجع الى رشدها والرجوع رجوع الى الله جل وعلا : فالرجوع اليه يكون بالاخذ بهدى الوحى ( إن الى ربك الرجعى ) العلق 8**

**نجد محمد اقبال يحصر حل مشكلة العالم هذه فى البعد الاخلاقى الكامن فى جوهر روح الدين وليس بكونه عقيدة او بكونه كهنوتا او شعيرة من الشعائر اذ الدين هو وحده القادر على إعداد الانسان العصرى إعدادا خلقيا يؤهله لتحمل التبعة العظمةالتى لابد من ان يتمخض عنها العلم الحديث وان يرد اليه تلك النزعة من الايمان التى تجعله قادرا على الفوز بشخصيةته فى الحياة الدنيا والاحتفاظ بها فى دار البقاء فالمشاكل الاخلاقية ذات القالب الكونى والعالمى تتطلب وتفترض كذلك حلا وتفكيرا كونيا**

**ومن ثم فالمسألة الاخلاقية اليوم مسألة فى غاية الاهمية ولاتدعى بأننا من خلال هذا البحث سنقدم مقاربة لموضوع المسالة الاخلاقية بقدر ما تسعى لتسليط الضوء على المسالة الاخلاقية عند محمد اقبال من خلال ما كتب خاصة كتابه تجديد التفكير الدينى فى الاسلام اذ حاولنا ان نربط موضوع التجديد والدعوة اليه بموضوع الاخلاق فالتجديد فى فهم الدين هو تجديد كذلك فى منظومة الاخلاق اذ يعد التجديد ثورة على اخلاق التقليد والاتباع والاخذ باخلاقيات النظر العقلى الذى ينحو منحى الغائبة والقصدية فى الخلق بجلب المنفعة والخير العام**

**1 – كتاب تجديد التفكير الدينى فى الاسلام**

**كتاب تجديد التفكير الدينى فى الاسلام عبارة عن محاضرات القاها محمد اقبال باللغة الانجليزية مابين 1928 و م بطلب من الجمعية الاسلامية " بمدراس " واكملها فى مدينتى حيدر آباد وعليكره الهنديتين وقد قدر لهذه المحاضرا ان تتحول الى كتاب دون فيه إقبال فلسفته ورؤيته الاصلاحية ونظرته الى القرآن مع العلم ان اقبال سار على خطى الكثير من الشعراء الذين جعلو من الشمر حاملا لرؤاهم وفلسفتهم فى الوجود امثال جلال الدين الرومى 1273 م وغيره ومن بين دواوينه اسرار الذات رسالة الشرق فإقبال عرف كشاعر اكثر مما عرف كفيلسوف**

**صدرت تلك المحاضرات فى كتاب باللغة الانجليزية مع بدايات ثلاثينات القرن العشرين فنقله الى العربية عباس محمود وصدر فى القاهرة فى منتصف الخمسينات من القرن الماضى وقد تمت اعادة ترجمة هذا الكتاب بدل الترجمة الاولى فى اطار مشروع اعادة اصدار كتب التراث الاسلامى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين الذى تقوم نه مكتبة الاسكندريه بشراكة مع مؤسسة كارتيغى الامريكية وقام بترجمته الى العربية الاستاذ محمد يوسف عدس المستشار السابق بمنظمة اليونسكو الذى ينتمى الى طائفة نادرة من المترجمين ممن يصرفون جهودا غير عادية لنقل الكتاب المترجم بالروح نفسها التى كتب بها الى القارى العربى ولولا هذا الكتاب لكان من الصعب الكشف عن طبيعة فلسفة محمد اقبال وعن اسسها ومبانيها والتعرف عليها بصورة منظمة وامكانية الحديث عنها والعودة اليها فقد جاء هذا الكتاب لينقل فلسفة اقبال من عالم الادب الى عالم الفكر ومن عالم الشعر الى عالم النثر والهدف الذى يتوخاه المؤلف منه هو العمل على بناء الفلسفة الدينية الى جانب ماجرى على المعرفة الانسانية من تطور فى مناحيها المختلفة وقد أسر المؤلف لاحد جلسائه بأنه لو افترضنا أن هذا الكتاب ألف فى عهد لخليفة العباسى المأمون 831 – 832 م لترك اثارا عميقة فى الحقل الثقافى الاسلامى ولهذا فهذا الكتاب له اثر كبير على الفكر الاسلامى المعاصر ومن بين الذين تأثروا به المفكر الجزائرى مالك بن نبى والمفكر الباكستانى فضل الرحمن وغيرهما**

**2 – تجديد التفكير الدينى مطلب واقعى وقرآنى**

**الحديث عن فلسفة واجتهادات محمد اقبال فى حد ذاته حديث عن فحوى ومضمون كتابة تجديد التفكير الدينى فى الاسلام وهو كتاب فى غاية الاهمية اذ يبدو للوهلة الاولى من خلال عنوان الكتاب الفصل الاول الدينى المنهجى بين الدين فى جوهره أى نصوصه المؤسسة وبين الفكر الدينى الذى تشكل نتيجة التفاعل العقلى والقلبى مع ذلك الجوهر من جهة ومن جهة اخرى مع مقتضيات الواقع والكون ( التفكير الدينى ) ومن ثم فعنوان الكتاب فى غاية الدقة المنهجية اذ المراد والمقصود من التجديد هذا هو تجديد الفكر الدينى فى الاسلام وليس تجديد الدين بمعنى ان الدين ثابت بينما فه مع متحول ومتعدد وقد عرف التفكير بشكل عام بكونه نشاطا عقليا والدعوة اليه فى القران الكريم جاءت مقرونة بالدعوة الى التفكر فى ايات الله مثل قوله تعالى : إن فى خلق السموات والارض واختلاف اليل والنهار لأيات لألباب \* الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق الموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحنك فقنا عذاب النار ) ال عمران 190 ( 191 وقوله تعالى ( وسخر لكم ما فى السموات والارض جميعا منه إن فى ذلك لايات لقوم يتفكرون ) الجاثية 13**

**ان عنوان الكتاب يلخص عين المشكلة التى يعانى منها العالم الاسلامى اليوم فعندما تحل روح التقليد والجمود فى الفكر بدلا عن روح التجديد حينها تتسع دائرة الجهل والإتباع بدل الابداع وتتقلص قيم الحوار والتعارف والجدال بالتى هى احسن على حساب الفهم الطائفى لقضايا الدين والمجتمع ( كل حزب بما لديهم فرحون ) المؤمنون 53 انها لحظة غياب روح الجماعة والجماعة هذا بالمفهوم الانسانى المفتوح الذى يستحضر مصالح الناس أجمعين كما عبر القرآن فى اكثر من موضع بقوله ( ياأيها الناس ) وكم كان القرآن دقيقا فى وصف حالة الاعارض عن امر التجديد وما اتصل به من الية إعمال العقل والقلب فى وصفه لكثير من الناس اتخذوا قولهم ( بل نتبع ما ألفينا عليه ءاباءنا ) البقرة 170 شعارا لهم ولو كان أباؤهم لايعقلون ( أولو كان ءاباؤهم لا يعقلون شيئا ولايهتدون ) البقرة 171 قال الله تعالى ( لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم ءاذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم الغافلون ) الاعراف 179فمثئلة التقليد والمقلدين تكمن فى توقف قلوبهم عن الفهم وتوقف الاعين عن البصر وتوقف الاذان عن السمع الى درجة ساروا فيها هم والانعام على حد سواء ( إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون ) الانفال 22**

**صحيح انهم يبصرون كل الظواهر بأبصارهم ويسمعون كل الامور ولكن المشكلة فى كونهم ليرتقون الى درجة الفهم والفقه القلبى والعقلى المتجدد لكل مايحيط بهم بمعنى ان الانسان قد يفقد قيمته الانسانية الى درجة يستوى فيها مع الانعام ان لم يخر ملكة السمع والبصر والفؤاد لديه فى التحصيل العلمى والمعرفى فالله جل وعلا أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا وأكرمنا بنعمة السمع والبصر والفؤاد لنشكره ( والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاوجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون )النحل 78 والشكر هنا مقرون بتفعيل ملكة أسماعنا وأبصارنا وأفئدتنا فى الارتقاء الفكرى والمعرفى المتجدد وقد جاء فى موضع من القرآن ان هذه الملكات التى تمت الاشارة لها من قبل هى المسؤلة عن التحصيل العلمى والمعرفى لدى الانسان بمنطق التحصيل والنقد والتحليل إن اراد ذلك وسعى اليه طبعا لقوله تعالى ( ولاتقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل ألائك كان عنه مسئولا ) الاسراء 36 ومن ثم فالتجديد والدعوة اليه يقضى الى توسيع دائرة العلم والمعرفة بشتى تخصصاتها بالبحث والنظر فى الافاق والانفس كما ورد فى القرآن ( سنريهم ءايتنا فى الافاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ) فصلت 53 ومن ثم فطريق الحق ومسلكه يكمن فى النظر العقلى فى الكون والانسان والزمن والقرآن ولانختلف فى كون الايمان يعد جوهر الدين الذى من غايته ومقصده الاسمى هداية الانسان فى تدبيره لنفسه وفى صلاته بغيره وتبعا لهذه الغاية فهو اشد حاجة حتى من المبادىء العلمية المسلمة الى اساس عقلى لمبادئه الاساسية ولهذا ليس من العب بأن تكون عصور الايمان هى عصور النظر العقلى بمعنى ان العقل يعد من مقومات الايمان والتى لاغنى عنها وبعودتنا الى القرآن نجده مجد العقل الى درجة يصح القول معها إن القرآن فى جزء كبير منه دعوة لإعمال العقل إذ ور**

**وردت هذه المفردة ( يعقلون ) 22 مرة ومن الملاحظ أن وصف " لايعقلون " يأتى بعد الدعوة للنظر والتفكير فى الكون والموجودات يقول الله تعالى " إن فى خلق السموات والارض واختلاف اليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأوحينا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون ) البقرة 164 ويقول ايضا ( وفى ارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها فى الاكل إن فى ذلك لايات لقوم يعقلون ) الرعد 4 ويفهم من خلال تتبع الايات القرآنيةالتى وردت فيها مفردة " العقل " بكون القرآن الكريم يجعل من العقل وسيلة عبور لغاية اخلاقية مرتبطة بالعمل الصالح وبالمصلحة العامة وبما يعود بالخير على الصالح العام قال الله تعالى ( ولاتفسدوا فى الارض بعد اصلحها وادعوه خوفا وطمعاإن رحمت الله قريب من الحسنين ) الاعراف 56 ومبدأ طلب الصلاح مبدأ اخلاقى يجعل الانسان مستقلا عن افق البهيمة وهو الاصل الذى تتفرع عنه كل صفات الانسان فالمعقل والعقلانية التى تستحق ان تنسب اليه ينبغى ان تكون تابعة للاصل الاخلاقى وعليه يجب على العلم والمعرفة ان تنحوا منحى الاصلاح والاعمار بدل الفساد والدمار فالفعل الانسانى فى القرآن مرتبط بالدعوة الى الاقبال على العمل الصالح قال الله تعالى ( إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ) فصلت 8 وإذا كان القرآن الكريم يستحضر العقل كوسيلة للعبور لغاية اخلاقية فعلى العكس نجد الفكر اليونانى ينظر الى العقل كجوهر وغاية فمثلا أرسطوطاليس يعرف العقل بكونه عبارة عن جوهر قائم بالانسان يفارق به الحيوان ويستعد به لقبول المعرفة**

**إن دعوة القرآن الكريم لإعمال المجرد والمفصول عن مقتضيات الواقع والزمن بل هى من باب تأكيده على الاتجاه التجريبى مما كون فى اتباعه شمروا بتقدير الواقع يجعل منهم اخر الامر واضعى اساس العلم الحديث ويعلق ٌبال بقوله وإنه لأمر عظيم حقا ان يوقظ القرآن تلك الروح التجريبية فى عصر كلنيرفض علم المرئيات ان تطورات العالم المتغيرة تحمل**

**حياتنا على التشكل بصورة جديدة والجهد العقلى الذى تبذله للتغلب على ما يقيمه العالم من عقبات فى سبيلنا يشحذ بصيرتنا فيهيئنا للتعمق فيما دق من نواحى التجربة الانسانية الاخرى والروح التجريبية هذه التى ايقظها القرآن لا تنحصر بالاقبال على النظر فى عالم المحسوسات فقط بمعزل عن التجربة الدينية بل على العكس من ذلك اذ تمد التجربة الدينية كذلك مصدرا للعلم الإلهى وعندما نتحدث عن التجربة الدينية فى علاقتها بالنظر العقلى فهذا يعنى اننا نربط النظر العقلى بالغايات والمقاصد الاخلاقية للذيدين وبعد كل هذا يمكننا القول بأن تجديد التفكير الدينى فى الاسلام فى حد ذاته دعوة الى تجديد النظر العقلى والقلبى والفلسفى فى الكون والانسان والقرآن وإعادة بناء العلاقة التى ينبغى ان تسود بين الانسان وعلم الغيب وعالم الشهادة ( الكون )الامر الذى تنبهله محمد إقبال وعيا منه بأن للفكرالجديد أمكن الوصول الى اراء اخرى فواجبنا يقتضى ان ترقب فى يقظة وعناية تقدم الفكر الانسانمى وان تقف منه موقف النقد والتمحيص فالحد الفاصل بين التقليد والتجديد يكمن فى كون التقليد يؤمن بمحدودية الفكر والنظر وبذا يعمل على شاعة ثقافة واخلاق الخنوع والاتباع بدعوى انه ليس فى الإمكان أبدع مما كان بينما التجديد يؤمن بلا محدودية الفكر والنظر وفى هذا دعوة الى ترسيخ خلق الابداع كما أشرنا سالفا**

**3 – تجديد الفكر الدينى والمسألة الاخلاقية**

**صحيح ان محمد إقبال لم يكتسب فى موضوع الاخلاق ولكن وعيه بكون القرآن الكريم يحمل بداخله نظرة كلية للعالم والانسان جعلت ماكتبه يصب بشكل او بآخر فى موضوع المسألة الاخلاقية وذلك لكون التجديد فى جزء كبير منه يرتبط بموضوع الاخلاق بكونها من وراء تحديد الغاية من وجود الانسان فى هذا العالم وفى طبيعة العلاقة التى تربطه بالغيب والكون وبأخيه الانسان ولهذا نجد لموضوع الاخلاق قيمة عاليا القرآن اذ جاء وصف خير المرسلين بقوله تعالى ( وإنك لعلى خلق عظيم ) القلم 4 وهو ما أكدته أمنا عائشة رضى الله عنهاعن خلق النبى صلى الله عليه وسلم قالت " كان خلقه القرآن " وقد لخص الرسول صلى الله عليه وسلم مهمة بعثته بإتمام مكارم الاخلاق " إنما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق " مما يعنى ان جزءا كبيرا من الدعوة وحمل رسالة الخيروالسلم والسلام والاسلام الى الناس اجمعين يدور حول موضوع الاخلاق**

**أ – القرآن يعد منظومة أخلاقية كلية**

**بالرجوع الى مكتبتنا الاسلامية كما عبر عبد الله دراز " يلاحظ انها لم تعرف حتى الان سوى نوعين من التعاليم الاخلاقية " فهى إما نصائح علمية هدفها تقويم اخلاق الشباب حين توحى اليهم الاقتناع بالقيمة العليا للفضيلة واما وصف لطبيعة النفس وملكاتها ثم تعريف للفضيلة وتقسيم لها فى غالب الامر بحسب النموذج الافلاطونى او الاروسطى ولم يظهر فيها النص القرآنى كلية فالاخلاق القرآنية لم تكن الموضوع الرئيس للدراسة لدى المسلمين والمستشرقيين صحيح ان العلماء الاوائل قد قدموا نظرتهم عن موضوع الاخلاق فعلماء الكلام وعلماء الاصول قد فكروا جميعا فى مقياس الخير والشر اى الحسن والقبيح كما فكر الفقهاء فى شروط المسؤولية وفكر المتصوفة فى فاعلية الجهد وإخلاص النية والقصد ولكن رغم كل هذا نجد كل هؤلاء متأثرين بنزعاتهم المذهبية فالقرآن لم يرد ولا يحضر لديهم إلا مكملا او شاهدا او برهانا على فكرة ضد اخرى وحتى الوقت الراهن لم يحظ سؤال الاخلاق فى الفكر العربى المعاصر باهتمام كبير فقد بدا لدى الكثيرين سؤالا " تقليديا " لا يستجيب للمشاغل الايديولوجية لهذا الفكر لا يعنى ذلك ان الاخلاق لم تعد تعنى الانسان العربى على العكس ظلت الاخلاق موضوعا متصلا بالسلوك لكنه منفصل عن التفكير ومن هنا ظلت كتب الاخلاق كتبا تقليدية اساسا تحث على القيم المأـلوفة ولاتهتم بالخلقية الفلسفية التى تستند اليها هذه القيم ولهذا فالتعاطى مع النص القرآنى كمنظومة كلية اخلاقية تحمل تصورها الخاص للكون والعالم والانسان امر شبه مغيب لدى اغلبية الدارسين ونلتمس هذا المعطى اليوم فى الدراسات والابحاث التى تعاملت مع القرآن الكريم كمنظومة كلية ينبغى العمل على فهمها كما هى مثل كتابات المفكر اليابانى إيزووتسوتوشيهيكو وعبد الله دراز وابو القاسم حاج حمد وفضل الرحمن ومحمد اقبال كذلك فالقرآن الكريم يكتنز بين طياته نظرته الخاصة الى العالم وينبغى استحضار هذا المعطى المنهجى فى قراءة وفهم وتدبر سوره وأياته ويمكن تعريف " النظرة الى العالم " بانها طريقة لوصف الكون والحياة النظرة الى العالم تحدد مايمكن ان يعرف او ان يفعل فى العالم وكيف يمكن ان يعرف او ان يفعل إضافة الى تحديد الاهداف التى يمكن الطموح اليها النظرة الى العالم تحدد الاهداف التى يجب العمل على تحقيقها وتتكون النظرة الى العالم من ثلاثة مواضيع اساسية وهى تصوراتنا للموجودات فى العالم وتصوراتنا لاسلوب المعرفة وتصورتنا للقيم المجتمعية التى تحدد كيفية عملنا فى المجتمع ولاشك ان الرؤية الكلية القرآنية تتضمن تصورات لكل هذه المواضيع الثلاثى التى ذكرناها وقد سيق للمفكر الباكستانى فضل الرحمن المتوفى 1982 ان تساءل قائلا لماذا لم نستطع فى الفضاء الاسلامى ان تبلور الرؤية الكلية التى تصحب معها البعد التركيبى الذى ينطوى عليه القرآن الكريم فى نظرته الخاصة عن وجود الوجود والعالم والانسان فما لم نكشف عن هذه النظرة التى تتطلب منا ان نتعاطى مع القرآن كبنية نصية متداخلة المواضيع وفق نسق التوحيد الذى يشكل الخيط الناظم لكل ماجاء به لايمكن لنا ان نفهم قضاياه فى كليتها اذ نبقى حبيسى الفهم الذرى للايات والنصوص القرآنية الذى كان عليه علماء التفسير والذين كان منهجهم فى فهم القران وتفسيره ينبنى على التجزيء بانتزاع الايات والالفاظ بمعزل لاعن بعضها الاخر وبمعزل عن السياق النصى والزمانى الذى من خلاله وبهذه الطريقة فوتوا على انفسهم وعلى من سار على نهجهم فرصة الاحاطة بالنظرة الكلية التى يكتنزها القرآن للانسان وللعالم وهذه مشكلة شكلت جزءا اساسيا فى تاريخ الفكر الاسلامى فى علاقته بفهم القرآن تستند الرؤية القرآنية فى مجملها على مبدأ التوحيد فالتوحيد هو الاجابة الكونية الفطرية السوية للبعد الروحى للانسان فى فهم ذاته مبتأ ومالا وهو سقف المنطق الانسانى فى فهم ابعاد الحياة والوجود وما وراء الحياة والوجود فكلمة الله الواحد الاحد تعد المركز المحورى والمفتاحى داخل الحقل الدلالى للقرآن الكريم فهى أسمى كلمة صميمية فى المعجم اللغوى للقرآن لكونها مهيمنة على الميدان كله وهذا المظهر الدلالى يعنى ان عالم القران مرتكزا اساسا على الله وهذا ما صدم العرب زمن النزول وأثر فيهم لكونهم ادركوا معنى غير مألوف لديهم رغم أنهم كانوا يعرفون هذه الكلمة فالمعنى الذى ادركه العرب لاول مرة ومن تلاهم هو معنى التوحيد فالله الواحد الاحد فى القرآن ليس هو الإله المتعالى فحسب بل هو الموجود الوحيد الذى يستحق ان يسمى موجودا بكل مافى الكلمة من معنى والذى لايمكن لاى شىء فى العالم كله ان يضاده إن الله يقوم فى مركز عالم الوجود بالذات وكل الاشياء الاخرى الانسانية وغير الانسانية مخلوقات له قال الله سبحانه وتعالى : ( سبح لله ماتفى السموات والارض وهو العزيز الحكيم \* له ملك السماوات والارض يحى ويميت وهو على كل شىء قدير \* هو الاول والاخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ) الحديد 1 - 2 لقد ارسيت دعائم التوحيد واقيمت قواعده فى فطرة الانسان فالنفس البشرية لها نزوع نحو معرفة وحداثية الخالق كما ان موضوع التوحيد فى مجمله يمتد الى الكون بأكمله ولهذا نجد القرآن الكريم – وهو يبسط مبدأ التوحيد ( وحدة الخالق ) المفصل المحورى داخل الحقل الدلالى القرآنى يستند الى الكون الذى يحمل بين ثناياه (وحدة الخلق ) قال الله تعالى ( إن فى خلق السماوات والارض واختلاف اليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وماأنزل الله من السماء من ماء فأحي ابه الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون ) البقرة 164 ونشير هما بكون التوحيد يعد مد**

**خلا محوريا لمنظومة القيم والاخلاق المشتركة بين الناس والتى يمكن خصرها بشكل إجمالى فى ثلاث اساسيات وهى التوحيد والتزكية والعمران والتى يمكن ان تشق منها القيم والأخلاق الاخرى التى تتفرع عنها فالتوحيد يقتضى توحيد الخالق والتسليم له والخروج من حالة الفوضى والشركاء الى حالة وحدة الوجهة والغاية والهدف اما التزكية فهى تقتضى تطهير النفس والارتقاء بها نحو الخير والفضيلة بدل الظلم والرذيلة اما الاعمار فيتصل بإعمار الكون وفقا لما فيه مصلحة للخلق بتوظيف الطاقات العلمية فى إعمار الارض وترقية الحياة البشرية وبمودتنا لمحمد إقبال نجده قد بسط القول حول كثير من الموضوعات الكلية فى القرآن الكريم من اهمها كونه ناقش موضوع التوحيد مؤكدا ان الدين يعد مصدرا محوريا للمعرفة وانه ليس هناك تعارض بين الفلسفة والعلم من جهة والدين من جهة مبينا ان وجود الله يتصل بالكون كله على مثال اتصال الروح بالبدن فالروح لا هى داخل البدن ولا هى خارجة ولا هى قريبة منه ولا هى مفترقة عنه ولكن اتصالها بكل ذرة من ذرات البدن حقيقة واقعية فكلمة التوحيد التى تنتج عن المعرفة الدينية هى نفسها مفاد المعرفة الكونية وقد ناقش إقبال موضوعا فى غاية الاهمية وهو القدر وذهب الى كون الزمان يمهد كلا مركبا وهو الذى يسميه القرآن ( التقدير ) وهى كلمة أسىء فهمها كثيرا فى العالم الاسلامى وفى خارجه والتقدير هو الزمان عندما ننظر اليه على انه سابق على وقوع إمكانيته هو الزمان الخالص من شباك تتابع العلة والمعلول أى حالة الرسم البيانى التى يفرضها الفهم المنطقى على الزمان وباختصار هو الزمان كما نشعر به لا كما نفكر فيه او نحسبه والزمان بوصفه تقديرا هو ماهية الاشياء ذاتها كما جاء فى القرآن ( إنا كل شىء خلقنه بقدر ) فتقدير شىء إذن ليس قضاء غاشما يؤثر فى الاشياء من خارج ويضيف بان حركة الزمان لايمكن تصورها على شكل خط قد رسم بالفعل بل هى خط مازال يرسم او تحقيق لممكنات جائزة وهى تتصف بالغائبة وانها تصل الى نوع من تحقيق الحاضر عن طريق الحرص على الاحتفاظ بالماضى والاضافة اليه فالعالم فى نظر القرآن قابل للزيادة هو عالم ينمو وليس صنعا مكتملا خرج من يد صادمة وبهذه المقاربة يكون محمد اقبال قد اسهم فى حل إشكالية قديمة تتعلق بالقضاء والقدر التى ألقت بظلاله على سيرورة الفكر الاسلامى وقد قال فيها كل من الفقهاء والمتكلمون والفلاسفة وغيرهم برأى ونحن هنا لسنا أمام عرض أرائهم وتصوراتهم لهذا الموضوع ففهم القدر على هذا المنوال الذى قال به إقبال سيفضى لا محالة الى الوعى بالقيمة الخلقية المتعلقة بحرية الانسان وبكونه ليس مجبورا على افعاله كما يتصور بعضهم ان محمد اقبال يطرح مفهوم الحرية الانسانية بمعزل عن الفلسفة المعاصرة ذات النزعة المادية التى شكلت الجزء الكبير من القاعدة المعرفية لموضوع الحرية اذ تم التعاطى مع الانسان فى بعده البيلوجى الطبيعى ككائن منتج ومستهلك بتطور بدافع الاشباع المادى ومن ثم تم تقييد الحرية بالمنفعة الذاتية وفى هذا ابعاد للبعد الروحى لدى الانسان بينما الحرية عند إقبال ترتبط بالبعد الاخلاقى الذى يتصف بع الانسان دون غيره من الخلق اذ يؤكد على كون الدين يعد مصدرا للمعرفة من خلال التجربة الدينية ( الفردية والجماعية ) فهو يرى ان طلب المعرفة فى جوهره يعد صورة من صور الصلاة فاللمتأمل فى الطبيعة تأملا علميا هو نوع من الصوفى الباحث عن العرفان يؤدى صلاته فالصلاة إذن سواء فى ذلك صلاة فرد أم صلاة الجماعة هى تعبير عن مكنون شوق الانسان الى من يستجيب لدعائه فى سكون العالم المخيف وعليه فالقيمة الاخلاقية التى تتتب على الشائر والمناسك التى قال بها الدين فى نظر إقبال هى القيمة تفسها التى ينبغى ان تترتب على الفعل المعرفى فى البحث فى علوم الطبيعة وغيرها ما دام ان الوهة واحدة وهى الله جل وعلا وهذا معطى منهجى يربط بين العلم والاخلاق**